كومنولث العبيد

أول ما خطر ببالي وأنا أفكر في عنوان مقالي أن أجعله (الكومنولث الإسلامي) ولكن عز عليّ أن أنسب إلى الإسلام وهو دين الحرية والسمو عملاً ليس فيه أثارة من وحيه ولا دلالة من معناه، فقلت أجعله: (الكومنولث المتطوع) ولكن التطوع لا يكون إلا من ذات النفس لذات الخير، وهذا العمل جبر لا خيار فيه، وشر لا خير منه.

فقلت أنحت له اسمًا من أسماء أعضائه الأربعة، فآخذ من تركيا (تر) ومن باكستان (با) ومن العراق (عر) ومن إيران (أن) وأقول الكومنولث التراباعراني.. ولكني وجدتني آخذ الحرفين من لفظ العراق وكان الحق أن آخذهما من لفظ (نوري) فإن العراق العربي الأبي المسلم لا يخرج على إجماع العروبة وهو مختار. ولا يخالف عن أمر الإسلام وهو حر. فضلا عما في الاسم المنحوت من الترب والبعر وأدب الحديث عن الدول مهما تسيء بنفر من هذه الحروف. ولذلك عدلت عنه إلى العنوان الذي تراه.

* * * * *

وأمر الذي أكرهني على أن أخوض حديث هذا الكومنولث المتطفل أني رأيت أكثر أعضاء الكومنولث البريطاني قد ضاقوا ذرعا بجرائم (جون بول) فنزعوا إلى الانفصال عنه أو شاركوا الأحرار في الإنكار عليه إلا العضو المسلم فيه فقد ازداد إيمانه به واشتد إخلاصه له حتى رأى من شرف الجهاد في سبيله أن يؤلف هو وثلاث دول أخرى تشهد معه أن لا إله إلا الله كومنولث آخر يشارك الأول في الولاء لتاج الملكة، وينفرد هو بالعبودية لقبعة إيدن، فيعادي من تعادى ويوالي من توالى، ولا يجري في معاداته أو موالاته على منفعة يجرها عليه أو مضرة يدفعها عنه، وإنما يجري فيهما على شعور العارم بلذة التبعية التي غلبت على غريزة الحرية فيه، فهو يجافي روسيا لمنفعة غيره، ويصافي إسرائيل لمضرة نفسه ! ولا أدري لماذا تنقلب الأوضاع وترتكس الطباع في هذه الدول التي تعتقد الإسلام دون غيرها من سائر الدول؟ فهل في الإسلام ما يبرر هذا المسخ النفسي الذي يستحب العبودية على الحرية والتبعية على الاستقلال؟ حاشا لدين الله الذي كرم بني آدم وربأ بهم أن يسجدوا ليشر أو حجر أن يكون جرثومة لهذه الآفة

الإنسانية في هؤلاء المرضى وهو الذي وضعهم من قبل موضع الصدارة من العالم فمكن لرشيد العراق أن يقول للسحابة: أمطري حيث شئت فإن خراجك لي، ويسر لفاتح الترك أن يجلس على عرش القيصر في القسطنطينية، وهيأ لأسلاف باكستان أن يملكوا الهند؛ ألم يقل الله لهم في كتابه الذي يؤمنون بتنزيله، ويستدلون بدليله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: 1] بلى قال الله ذلك وسمعوه، ولكنهم لم يطيعوه، لأن العبودية التي تخللت مشاعرهم وضمائرهم ذلك الدهر الطويل قد أماتت في نفوسهم روح الحرية، وطمست في رءوسهم معنى الاستقلال، فأصبحوا كالنساء لا يشعرون بالوجود إلا بجانب زوج، أو كالأرقاء لا ينعمون بالأمان إلا في حمى سيد !

* * * * *

ولعلك سمعت بخبر ذلك العبد الذي قضى أكثر عمره يخدم سيده بجد، ويرعى ماله بذمة حتى أراد السيد ا، يمن عليه بالحرية، جزاء على إخلاصه في العبودية، فقال له العبد في ذلة ومسكنة: وماذا أصنع بالحرية يا مولاي؟

أتكسوني حريتي مثل هذا الكساء، وتغذوني مثل هذا الغذاء. وتسكنني مثل هذا القصر؟ لا يا مولاي ! أنا عبدك ما حييت. تطعمني فأطعم، وترعاني فأسلم. وهل العيش إلا شبع وأمن؟.

تلك هي الفلسفة الحيوانية التي عبر عنها امرؤ القيس بقوله:

إذا ما لم تكن إبل فمعزى كأن قرون جلتها العصيُّ

فتملأ بيتنا أقطًا وسمناً وسبك من غني شبع وريُّ

والإبل في لغة حلف بغداد هي أمريكا أو الدولار، فإذا لم يجدوا السبيل إليها اكتفوا بالمعزى وهي انجلترا أو الجنيه. لذلك لم يكادوا يعلمون أنفي مشروع (أيزنهاور) للشرق الأوسط الإبل الحلوب والعشار حتى كانوا أول من صدق به وصفق له !.

ولو أن دول هذا الكومنولث الجديد أبعد نظرا من ذلك العبد وأسمى فكرا من هذا الشاعر لأدركوا أن وراء الغذاء والأمن، أو الأقط والسمن، أو الجنيه والدولار، حياة سياسية أخرى تليق بالإنسانية الرفيعة، لا تقتصر على مآرب الجسد، ولا تنحصر في مطالب الإقليم، ولا تستكين للأمير مكيافلي ولا للوزير نوري، ولا تعمد إلى وحدة العرب فتشتتها بالطمع، وإلى جماعة المسلمين فتفرقها بالشقاق، ولا تستغل بلايا الاستعمار في الشعوب من جهل وفقر ومرض لتحملها على المركب الهاوي في غيابة اللجنة.

هذه الحياة الخيرة المتحررة المستقلة هي التي تعوز حلف بغداد ! وليتهم سموه حلف أنقرة فإن ساستها به أحق، وسياستها به أشبه !.

* * * * *

إن الاستعمار الذي يركله الحذاء العربي في كل مكان يتجمع اليوم بحقده وعناده وجرائمه في إسرائيل ليهجم هجومه الأخير الحاسم على أرض العرب، وسيجعل الصهيونية في هذا الهجوم رجليه وحلف بغداد يديه.

فهل يدري هؤلاء الساسة عاقبة ما يفعلون؟ وهل تدري شعوبهم حقيقة ما يبيّتون؟ وهل تبلغ بهم لذة العبودية للغرب وشهوة السيادة على الشرق أن يتخلوا في سبيلها عن أخوة الجنس وإخوانية الدين وحرمة الجوار ومدافعة الخطر العام واستنقاذ الوطن المشترك؟ لو أنهم كانوا فقراء لقلنا جياع يجرون وراء الرغيف، ولكنهم يملكون من موارد الرزق ومصادر الثروة ما تتحلب له أشداق الأمم الأخرى. ولولا ما في أيديهم من ينابيع النفط لما نشأ استعمار ولا نشبت جرب.

* * * * *

فإلي متى أيها المسلمون في تركيا والعراق وإيران وباكستان تستكينون لشياطينكم الذين يحاربون بكم إخوانكم في دين الله وشركاءكم في تراث محمد وزملاءكم في جهاد الإنجليز؟ هل تظنون أنه يغني عنكم في الدنيا أن تقولوا: إخواننا ! أنا معكم بقلوبنا فلا تؤاخذونا بما فعل المأجور والدخيل، ولا يشفع لكم في الآخرة أن تقولوا: ربنا إنا

أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل.. لا يا إخواننا ّ لا معذرة منا ولا مغفرة من الله ! إن هذا الزمن زمن الشعوب. وما هؤلاء الذين يبيعونكم للاستعمار بالثمن البخس إلا أفراد ضعاف الحول لهم ألسن تعرض وأيد تقبض. أما نتم فالسيوف التي تضرب والسواعد التي تنتج والقوى التي تنفذ. ما لكم تلقون بأنفسكم وأموالكم في أتون الصراع بين الرأسمالية والشيوعية وقد جعلكم الله أمة وسطا تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤدون رسالة والوئام والمحبة؟.

ما بالكم تتبعون هؤلاء الغواة الذين يريدونكم على أن تظلوا توابع لشمس كسفها الله فلا ضوء ولا حرارة، وعما قليل سيكوِّرها فلا يكون جرم ولا فلك.

ذكروا هؤلاء الخادعين الطامعين أن شمس المدينة قد أرسلت علينا أول أشعتها في صبح الوجود، ثم متع ضحاها فغمرتنا بالنور والشعور والقوة، ثم انحدرت إلى المغيب في بلاد المغرب حتى بلغت خيوطها أطراف الشفق. إنها ستعرب لا محالة، وإنها ستشرق لا محالة. وإن غروبها لا يكون إلا هناك، وإن شروقها لن يكون إلا هنا. وها هي ذي تباشير الصباح قد لاحت في آفاق مصر وسورية وهيهات أن ينكروها بالألسن أو يستروها بالأكف !.